اللغات السامية
مجال في علم اللغات

محمد سليم رشداف

الاستاذ المحاضر في الجامعة الاردنية

ان أول ما نلتفت اليه حتى نتحدث عن اللغات السامية في مجال علم اللغات ، هو ذلك المصدر البعيد، الذي نبعت منه هذه اللغات السامية جميعا، وتشعبت عنه في الشمال والجنوب في الاقطار المختلفة التي استقر فيها ابناء هؤلاء الساميين منذ اقدم العصور .

وقد اختلف العلماء في تعريف هذا المصدر البعيد وفي نعته وتسميته ، فمنهم من قال : « ان هذا المصدر الذي تشعبت عنه سائر اللغات السامية هو اللغة (السامية الاولى) التي نطق بها في اعماق الدهر اقوام زالت بزوالهم وفنيت بفنائهم ، وبقيت منها ظلال ورسوم ، يلمحها الرائي على السنة احفاد اولئك الاقوام ، الذين تنوعت السنتهم باختلاف مواطنهم (1) في الشمال والجنوب .. »

ومنهم من قال : « ان هذا المصدر الذي تشعبت عنه سائر اللغات السامية ، انما هو اللغة (العربية الاولى) ، التي نطقت بها سبا في غابر الدهور ، حين هجرت اليمن وجعلت منها موطنا لها ، وجعلت تبتعد هذه الساميات عن امها السبئية بتراخي العصور ، وتنائي الديار ، واختلاط هؤلاء النازحين بمختلف الاقوام (2) ممن جاورهم في اصقاع الارض ..».

ثم ان هؤلاء العلماء قسموا هذه اللغات السامية الى اسر ، عرفت فيها اللغة الكنعانية وما تفرع منها بالاسرة الغربية ، وعرفت فيها اللغة البابلية وما تفرع منها بالاسرة الشرقية . ثم عرفت فيها اخيرا اللغة العربية وجارتها الحبشية وما تفرع منها بالاسرة الجنوبية .

وان موضوعنا الذي نخوض فيه يقتضي ان نطيل الوقوف عند الكنعانية التي اعتبرت الاصل الذي تشعبت عنه لغات الاسرة الغربية . وكانت اللغات العبرية واحدة من هذه اللغات .

وعلى الرغم من ان هذه اللغات العبرية قد تسرب اليها الكثير من الدخيل ، بسبب هجرة

---

(1) ذكر هذا الراي المستشرق (اولس هاوزن Ols Housen) في صدر كتابه ، الذي تحدث فيه عن « اللغة العبرية وتاريخ نشأتها » . والكتاب موضوع في اللغة الالمانية ومترجم الى الانجليزية .

(2) ذكر هذا الراي المستشرق اليهودي : (ليون ماحرز Lion Mahraz) وكذلك الدكتور علي العناني ، وذلك في كتابهما الذي صدر بعنوان:« الاساس في الامم السامية ولغاتها » وقد وضعاه في اللغة العربية .

ابنائها العبرانيين الى مصر ، واقامتهم الاجيال الطويلة فيها ، ثم تشردهم بعد ذلك فى بلاد (ملكان) قرابة نصف قرن من السنين ، وهي ايام التيه فى سيناء .

وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه اللغة ظلت قريبة الشبه من امها الكنعانية ، وغير بعيدة عنها . حتى كان اليهود انفسهم يصفون لغتهم العبرية ، بانها (لسان كنعان) . وقد ورد ذلك صراحة — وفى مواطن كثيرة — فى اسفار كتابهم المقدس .

* * *

وان اللغة العبرية لم تشارك الكنعانية فى اصولها فحسب ، بل شاركتها فى حروفها ، ومن اجل ذلك كتبت العبرية — اول ما كتبت — بالحروف الابجدية الكنعانية ، وظلت تكتب بها طوال العهد الذى مر بالعبرانيين منذ استوطنوا ارض كنعان ، الى ان كان السبي وخراب بيت المقدس . وكان شاهد ذلك ، النقش الذى خلفوه فى نفق (عين سلوان) عند الزاوية الشرقية من سور مدينة القدس الحالي (3) ، كما كان شاهد ذلك النقود التى عثر عليها فى اطلال بيت المقدس من ايام عهد (الهيكل) ومن ايام عهد (المكابيين) الذين شردهم الرومان بعد ثورتهم عليهم .

وقد بقي من آثار اللغة العبرية — التى هي بنت الكنعانية — الكتاب المقدس فى عهده القديم ، الذى يدل عليها اكمل دلالة ، ويسهل دراستها للباحثين ، ويقدم لهم صورة تكشف الكثير من ملامح امها الكنعانية ، التى كان من بنائها الى جانب العبرية : الفينيقية والنبطية والعمورية والموءابية ، وسواها من ساميات الاسرة الغربية .

وحين نبتغي مقارنة لغات الاسرة الغربية ، بلغات غيرها من بنات الاسرتين الباقيتين ، لا نجد امامنا ما يصلح لمثل هذه المقارنة غير لغتين النتين فقط ، هما : اللغة العربية من بنات الاسرة الجنوبية ، ثم اللغة الآرامية (ام السريانية) من بنات الاسرة الشرقية . وذلك لان ما عداهما ، اما انها ضاعت معالمها الاصيلة ، لكثرة ما اقتحم عليها من دخيل الشعوب المجاورة ، كاللغة الحبشية فى الاسرة الجنوبية واما انها زالت بزوال اهلها ، كالآشورية ، والكلدانية. وسواهما من بنات الاسرة الشرقية المتفرعة عن البابلية .

ولما كانت اللغة العربية هي موضع الاهتمام كله بالنسبة لنا — نحن ابناءها الناطقين بها — وفي ظلها تدرس اللغات السامية من اجل ان نستكمل الاحاطة بها ، ونتوغل الى جذورها البعيدة خلف اعماق الدهر ، حين كانت المبتدأ الذى منه تشعبت هذه اللغات السامية جميعا ، كما تكاد تجمع آراء الباحثين ، لذا فان مثل هذه المقارنة بينها وبين ما نتوصل الى معرفته من بنات هذه الاسر جميعا ، هو نهاية المدى وخاتمة المطاف والغاية التى نستهدفها من هذه الدراسة .

اذن بقي علينا ان نلتمس مثل هذه المقارنة بينها وبين اللغة الآرامية (ام السريانية) ، وعندها لابد لنا من الوقوف عند مدينة (الرها) لنلم بتاريخها ، ونعرف اخبار علمائها الذين احفوا لغتهم بالكثير الكثير من روائع المؤلفات فى مواضيع مختلفة . ثم نلتفت بعد ذلك الى الاثر الخالد وهو الانجيل فى اللغة الآرامية لغة السيد المسيح ، الذى كان وجده السبب فى بقاء هذه اللغة تتردد فى ساحات الكنائس على السنة المصلين. ورغم ذهابها من حياة الناس ، حيث استبدل بها اهلها فى كثير من ارجاء الارض لغة الشعوب التى فرضت عليهم سلطانها .

ولن ينقص من الاهتمام بهذه اللغة ، كونها لغة انحسر ظلها ، واصبحت فى عديد اللغات التاريخية ،

---

(3) اسمها فى لغة الكنعانيين القدماء (شلوح) وكانت تطلق على الينابيع وعنهم نقلها العبرانيون، وفى اللغة المؤابية تقابلها كلمة : (اشوح) ، وقد وردت فى (حجر ذيبان) ، واشير بها الى مورد الماء . وهذا الحجر عثر عليه فى الاردن على مقربة من بلدة مادبا.

(4) الرها: اسمها الآرامي (ارهوئي) ، واسمها اليوناني اديسا — Edessa) ، وقد كانت حاضرة العلم . وفيها قامت لها مدارس تنقل الحضارتين الافريقية والهندية الى ابناء المشرق ، ويؤلف علماؤها فى ذلك الكتب الكثيرة . وهي التى اعتمدها المترجمون فى عهد الخليفة المامون العباسي.

التي تدرس من أجل ان تبرز غيرها ، بسبب صلتها بها وقربها منها ، واشتراكها معها في الاصول والاعراق، وذلك حالها مع اللغة العربية وموضعها منها ؛ ومكانها في ابراز اصولها البعيدة ، ومن اجل هذا :

فان دارس اللغة العبرية في اصولها القديمة والحديثة ، باعتبارها لغة تاريخية ذات علاقة وثيقة – من ناحية الاصول والمصادر – باللغات السامية في اسرها الثلاث ، وبالتالي باللغة العربية ، يحسن به ان يحيط الى جانبها باللغة الآرامية ، ولو وقف ذلك عند حد قراءة النصوص ، وتصريف الافعال والاسماء مع الضمائر ، والالمام بتاريخ هذه اللغة ، ومدارس علمائها يوم كانت في عهود ازدهارها ونهضتها ، وبذلك يكون قادرا على المقارنة بينها وبين العبرية من ناحية ، ثم المقارنة بينهما معا وبين اللغة العربية من ناحية اخرى .

* * *

وحين نبلغ هذا المدى ، يجدر بنا ان نعلم بأن مقارنة لغة بسواها من اللغات القريبة منها او المشاركة لها في اصولها – كما هو الحال بين اللغات السامية على اختلافها – انما هو علم له قواعده واصوله ، يسمونه (علم اللغات) ، وهي تسمية كان لها مدلولها منذ عهد اليونان الاقدمين ، حين كانوا يحملون مشعل المعرفة لمن عاصرهم من اهل زمانهم ، وكانوا يلفظونها يومذاك (فيلولوجيا) وهي مركبة (5) من كلمتين : (فيولوس) ومعناها صديق ، و (لوجوس) ومعناها كلمة ، وعلى ذلك يكون معنى الكلمتين حين اجتمعتا معا هو : (صديق الكلمة) وقد رمزوا بها الى العالم الباحث .

واول من نطق بالكلمة المركبة هو الحكيم (افلاطون) ، وأراد بذلك توجيه الرغبة الى البحث العلمي . ثم صار هذا اللفظ يطلق على كل تفرغ الى استيعاب المعرفة ، ايا كان نوعها ما دامت هذه المعرفة تتناول شأنا من شؤون اللغة ، والبحث في تاريخها واصولها ، وقد استعمل هذا اللفظ قبل الميلاد في مدرسة الاسكندرية للدلالة على معرفة علوم اليونان والرومان في لغتيهما الاغريقية واللاتينية .

ثم تجوز الناس فيه فاذا هم يطلقونه على كل علم من العلوم مهما كان نوعه ، ومهما اختلف موضوعه، ومهما تشعبت فيه المسالك واختلفت الاسباب . واستمر به الحال على هذه المنوال ، حتى كان بدء عهد النهضة العلمية في ايطاليا ، وعند ذلك عاد لهذا اللفظ معناه ، الذي حدد له ايام مدرسة الاسكندرية . وفي اواخر القرن الثامن عشر ، اتسعت دائرة هذا الفن اللغوي ، فشمل البحث فيه كل لغات بني الانسان ، وليس فقط اللغتين : اليونانية والرومانية ثم ما في هذه اللغات الانسانية من انتاج عقلي ، حتى اصبحت كلمة (فيلولوجيا) تدل على المعنى الآتي وهو : « علم اللغات ، الباحث عن جميع الدراسات ، لدى كل امة من الامم ، لمعرفة اللغات واصولها ، وكل ما انتجته معرفة الانسان ».

لذلك كان على (علم اللغات) ان يقدر درجات الرقي الانساني العام ، في اللغة والادب وفي النظم الاجتماعية وفي الحياة الفردية ، وفي الدين والصناعة والعلوم . ومن اجل ذلك صح ان يقال : (الفيلولوجيا المصرية) او (اليونانية) او (العربية) او (السريانية) أو (العبرية) او (الهندية) و ما سواها . والمراد من ذلك هو كل ما لهذه الامم واحدة واحدة من انتاج عقلي ، ونصيب مدني مدون في لغاتها .

على ان العلماء الذين تفرغوا لدراسة (علم اللغات) ، اصطلحوا ازاء هذا المعنى العام على وصف (الفيلولوجيا الرتيبة) او (الفيلولوجيا المحتذاة) . وذلك عند الاشارة الى ما كان للاغريق والرومان (6).

وغرض علماء اللغات عندها من ذلك ، هو الاشارة الى ما كان يقصد بمدلول (الفيلولوجيا) في مدرسة الاسكندرية ، من انها العلوم اليونانية والرومانية

---

(5) فيلولوجيا : هذا التركيب المزجي يكتب باللاتينية (Philologia) كما ان كلمة (فيلوس) : تكتب باللاتينية (Philos) وكلمة (لوجوس) : تكتب باللاتينية (Logos) ، وذلك لمن اراد البحث عن مدلولها مفصلا في المراجع غير العربية .

(6) الرتيبة : ومثلها كذلك (المحتذاة) ، ترجمة حرفية للاصل اللاتيني وهو (Classique) الذي كثيرا ما يستعيرونه الى العربية بلفظه حين يقولون : (كلاسيكي) .

القديمة ، وعلوم (التحرر الانساني) التى ابتدات منذ القرن الثاني قبل المسيح ، فى مدرسة الاسكندرية المذكورة (7) ، والتى ظهرت بقوة فعالة من جديد فى عهد احياء العلوم .

* * *

ويمكن حصر (الفيلولوجيا) المحتذاة بعد عصر احياء العلوم فى (ايطاليا) فى اربعة ادوار وان تداخل بعضها فى البعض الآخر .

الدور الاول : وهو (الدور الايطالي) ويمتد تاريخه من منتصف القرن الرابع عشر الى منتصف القرن السادس عشر .

الدور الثاني : وهو (الدور الفرنسي) ويمتد تاريخه من منتصف القرن السادس عشر الى اواخر القرن السابع عشر .

الدور الثالث : وهو (الدور الهولندي البريطاني) الذى بدا تاريخه من اواخر القرن السابع عشر ، واستمر الى نهاية القرن الثامن عشر .

الدور الرابع : وهو الاخير ويسمونه (الدور الالماني) ، اذ بدات به المانيا من اواخر القرن الثامن عشر ، ولا يزال فى نموه المطرد حتى الآن .

ولو ذهبنا نحصي ما انتجه كبار الباحثين والمفكرين من العلماء فى هذا المجال ابتداء من (الدور الاول) ، حتى (الدور الاخير) ، لضاق بنا الحصر لكثرته البالغة .

* * *

والى جانب (الفيلولوجيا الرتيبة) ، ابتدات (الفيلولوجيا العامة) او (علم اللغات)، وذلك فى اواخر القرن الثامن عشر ، فافردت للبحث اللغوي ، فى كل اللغات الانسانية قديمة وحديثة ، حية وميتة ، وذلك لمعرفة ما فى هذه اللغات جميعها من انتاج عقلي ، فى مجالات الدين، والعلم، والفلسفة، والادب ، وتاريخ الادب، والمقارنات اللفظية، والمعنوية ولذلك سميت (الفيلولوجيا العامة).

وقد وصلت ابحاث هذا العلم اللغوي الشامل الى نتائج كبرى ، غيرت وجه التاريخ الانساني ، واقامت النهضة العلمية الحديثة ، على اسس ثابتة ، ودعائم قوية ، وكونت علوما مستقلة ما كانت لتظهر فى عالم الوجود ، لولا علم اللغات .

* * *

واما ما حصلت عليه البشرية من فوائد (علم اللغات) ومنافعه الكبرى ، فقد كان كثيرا لا يحصى، وحسبنا ان نذكر من ذلك انا بفضل هذا العلم ، توصلنا الى معرفة العاديات وحل النقوش والخطوط القديمة ، ومعرفة لغات هذه الخطوط وتلك النقوش، ومنها الهيروغلوفية والكتابة السنسكريتية ، والخط المسماري فى اللغات : السومرية والبابلية والآشورية.

وبينما كان التاريخ العام يستند الى قاعدته الاسطورية القديمة ويعتمد على روايات الكتب المقدسة، ويرى فى رحلات الرحالين ، واقوال الرواة ، والاخبار التى تقوم على الحدس والتخمين ، بينما كان التاريخ العام كذلك ، اذ بهذا العلم يزحزحه بقوته الجبارة ، عن مكانته تلك ، ليرتكز على الادلة الملموسة والشواهد المرئية ، من الآثار القديمة ، والعاديات السالفة والوثائق التاريخية المدونة ، والمخطوطات القديمة ، فيغير بذلك وجه التاريخ العام تغييرا كليا، ويقسمه الى قسمين :

الاول : ويتناول ما دونت حوادثه الآثار ، ودلت عليه السجلات الرسمية ، واوضحته واقرته العلوم الطبيعية التجريبية ، ويعرف بالتاريخ الصحيح .

والثاني : ويتناول التاريخ المروي، او التاريخ الاسطوري . وهو ما لم يتوافر فيه ما توافر فى التاريخ الصحيح من ادلة وبراهين . على ان هذا النوع

---

(7) التحرر الانساني : ترجمة حرفية كذلك لكلمة (Humanism) التى يستعيرونها هي الاخرى الى العربية حين يقولون : (هيومانزم).

من التاريخ لا يكون محلا للطعن او الرفض الا اذا جاءت البراهين الاثرية ، والنتائج العلمية الطبيعية بعدم صحته ، والا بقي الحكم له او عليه للمستقبل ، وما عسى ان تأتي به البحوث اللغوية الاثرية ، او تجارب العلوم الطبيعية مما يؤيده او ينفيه .

* * *

ومن فوائد علم اللغات ايضا ، دراسة العقليات القديمة، وتطور الفكر الانساني ، ومدنيات الاجناس البشرية ، وروابط الامم والشعوب ، ومكانتها في المجهود العقلي الانساني والانتاج الاجتماعي المدني.

وقد انتج (علم اللغات) علوما كثيرة ، لها اهميتها الكبيرة في حياة الانسان وكذلك في ثقافته العامة ، منها :

(علم مقارنة اللغات) مقارنة لفظية ومعنوية ، و (تاريخ ادب اللغة) ، بعد ان كان ادبا فقط ، و (تاريخ آداب اللغات المقارن) ، و (علم فقه اللغة) ، و (النقد الفني) ، و (النقد الادبي الكامل) . وكان هذا العلم الاخير موجودا من قبل ، ولكن على مستوى لا يجاوز حد البساطة في اذواق الادباء والمتاخرين والمتأدبين من (8) اسلافنا القدماء.

وخلاصة القول ، فان (الفيلولوجيا العامة) او (علم اللغات) ، لم يجاوز كونه وليد القرن التاسع عشر ، وان ما تقدم هذا العهد من الاشتغال بقواعد اللغتين الاغريقية واللاتينية ، وما تقدمه من الابحاث المستفيضة في ضوابط اللغتين العربية والعبرية . ان ذلك كله لم يصل الى توسيع دائرة البحث اللغوي الذي يمكن ان تسمى نتائجه (علم اللغات) . وان الفكرة المتطرفة القائلة بأن (اللغة العبرية) هي اللغة الانسانية الاولى، كانت مثبطة للهمم في البحث اللغوي الحر .

على ان التقارب بين اللغتين : العبرية والعربية، دفع المستشرقين اليهود ـ منذ القرن العاشر الميلادي ـ الى البحث والمقارنة بينهما من جهة ، وبين (العبرية) و (الآرامية) من جهة اخرى . وفي القرن السابع عشر ادرك المستشرقون مدى القرابة بين اللغتين : (الحبشية) و (العربية)، فدفعهم ذلك الى البحث عن هذا التشابه ، بين (العربية) واللغات السامية الاخرى، فوصلوا من ذلك الى معرفة المجموعة السامية .

وفي القرن التاسع عشر ، وصل الباحثون بفضل (علم اللغات)، الى الكشف عن العلاقة بين السنسكريتية (الهندية القديمة المقدسة) وبين الفهلوية (الفارسية القديمة) من جهة ، وقرابتهما الى اللغات الاوروبية من جهة اخرى ، فوصلوا من ذلك الى تكوين مجموعة (اللغات الآرية) ، او (الهندوجرمانية). وذلك الى جانب المجموعة المتقدمة، التي عرفت بمجموعة (اللغات السامية) . ومن هناك انطلقوا الى دراسة اللغات الاخرى في مختلف انحاء هذا الكون الفسيح، فوصلوا من ذلك الى سلسلة طويلة يضيق عنها الحصر .

المراجع :

1 ـ كتاب الاساس في الامم السامية وشعوبها ولغاتها ، للدكتور علي العناني ورفيقه ، ط 1 الجزء الاول . القاهرة ـ مطبعة بولاق 1925، ومن مواطن مختلفة فيه .
2 ـ كتاب تاريخ اللغات السامية للدكتور اسرائيل ولفنسون ، وفيه بحث عن اللغات السامية جميعها وشواهد وشروح ، وقد اعتمدت الكثير منها . ط 1 (القاهرة) 1929 .
3 ـ كتاب بروتو كولات حكماء صهيون ، من الاجزاء الاربعة . وخاصة ما تناول العبرية وما جاورها من لهجات كنعانية ، تاليف هجاج نويهض . ط 1 . بيروت 1967 .

(8) فقه اللغة : كان هذا العلم معروفا ايام حضارة العرب ، ولكن في مدلول محدود لا يجاوز حقيقة الفاظ اللغات وكلماتها . وفيه الف الثعالبي كتابه: (فقه اللغة). وهو اليوم علم واسع ، يتناول فيما يتناوله في اللغات الحديثة ، العلم الذي يطلقون عليه : (Etymologie)